أزمة محبّ زيادة

بقلم أنور الجندي

في موعد الذكرى للكاتبة العربية « ماري زياده » يبرز ذلك الجانب الاليم المثير من حياة مشرقة خصبة حلوة، كانت عامرة منذ مطالعها بالبشاشة والاشراق والحب ، تحفها عوامل كلها تفتح الطريق للمجد والحب والسعادة. فهي وحيدة والديها ، نشأت في بيئة الادب والفكر والصحافة ، جميلة رائعة ، ذكية القلب والفؤاد ، كاتبة ذات قلم ، واسعة الثقافة ، توقع بامضاء (ايزيس كوبيا) اذا كان شعرها بالفرنسية او (مي) اذا كان بالعربية ، تطلعت الى الادب الروماني العاطفي وصورت مشاعرها في يوميات ولمحات وصور مختلفة ، حاولت ان تكتب بهذا كله الادب النسوي في طابعه العميق ، ومرماه البعيد ، يستشف مشاعر المرأة ، وأحاسيس الانثى وروح الشرق وعطر الحذر ، ثم يصور ذلك الصراع بين البيئة القديمة والبيئة الجديدة ، وقد ارتفع صوت الدعاة الى حرية المرأة ، ودخلت الفتاة ـ ومي ايضا ـ الجامعة (المصرية) وبدأت كتابات باحثة البادية وزينب فواز ولبيبة **هاشم** تبرز في افق الصحافة والمجلات ..

ثم تأخذ « مي » في طريق اخر غير طريق الكتابة حيث تلتقي بالشعراء والادباء في صالون بيت ابيها مساء الثلاثاء فيرده عدد كبير من الاعلام حيث تجد الطريق الى حديث يدور بين اقطاب الفكر في مختلف مجالاته، محوطا بالخبرة ، مليئا بالعمق ، ايام ١٩١٤ ومي اذ ذاك في حدود الثلاثين قد استوت شبابا وجمالا ، واشرقت، يتطلع اليها الرواد ويكن كل منها لها الحب ، ويبعث لها بالرسائل . وقد أحصيت عشرات الرسائل واثرت قصص عديدة من قصص الحب. العقاد والرافعي وانطون الجميل في مقدمة هؤلاء ، واسماعيل صبري يقول الشعر :

روحي على دور بعض الحي هائمة
كظامىء الطير تواقا الى الماء
ان لم امتع بمي ناظري غدا
انكرت صبحك يا يوم **الثلاثاء**

وقد ظهرت مي من بعد في شعر للعقاد وفي ثلاثة كتب للرافعي ، وفي قصص وكتابات لطه حسين والزيات .

وكان هناك جانب خفي عن الصالون هو علاقة من وراء البحر بدأت بين مي وجبران .. لعلها كانت أشد نفاذا الى قلب مي من رسائل عشرات ممن كن يردن صالونها ..

ولعلها هي لم تكتب لواحد من هؤلاء ما كتبت لجبران :

« اعرف انك محبوبي واني أخاف الحب ، اني انتظر من الحب كثيرا فأخاف ان لا ياتيني بكل ما انتظر.. كيف أجسر علي الافضاء اليك بهذا . الحمد لله انني اكتبه على الورق ولا اتلفظ به .. »

وهي لم تكتب هذا لجبران الا بعد ما بلغ بها ما بلغ وبعد سنوات من الرسائل ، وهو هناك غارق في لهوه وأهوائه .. وهي تظن انها قد وجدت فيه الرجل والانسان .

وكان رده واضحا . انه بعيد عن جوها تماما :

« انا ضباب يا مي . ضباب يغمر الاشياء ولكن لا يتحد واياها .. انا دائما في انتظار . انتظار ما لا اعرفه .. » .

لقد اتجهت اليه ولكنه لم يتجه اليها . كان يعرف ما يعوقه عنها ، وكانت هي تنظر اليه على انه الرجل الذي يملأ حياتها . ولم يكن هو كذلك حتى في صوره التي كان يكتبها فهو الساخر القلق ، الذي لا يؤمن بشيء ، ولا يرتبط بعقد ، ولا يحفل بالقيم .

لقد كانت هي انذاك تقترب من الاربعين ثم تعدوها.. في مكانها المحدود ، مكتبها وقلمها ولقاء من تلقى في صالونها ، وهي تتطلع الى اعماقها ، لقد بليت كل هذه الصور العصرية .. وعادت الحقيقة ، برزت صورة الفتاة الشرقية بكل تقاليدها وقيمها واحتفالها بالبيت والطفل والرجل .

كان الانس الى جبران دون الكثيرين ، له اكثر من معنى : الالتقاء في الوطن ، والعقيدة ، ومجالات الادب والفكر . غير انه سرعان ما بان وجه الخلاف .

هي كامرأة شرقية مهما اعطيت الحرية فهي في اعماقها تحس احساس المرأة ، تريد الزوج ولا تريد الفنان . وهي ما زالت بالرغم من كتاباتها الحرة تنطوي على احساس المرأة الشرقية التي تحب البيت وتشتاق الى الطفل وتود ان تقف حانية امام الزوج .

اما هو فقد كان بمختلف قراءاته وطبيعته المتمردة قد عدا هذا الطور ، وهزأ بمثل هذه القيم ، واحتقر الطقوس والقيود التي تعارفت عليها الاديان والتقاليد..

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فانه لم يكن ممكنا ان يكون زوجا ، فانه مريض بنفس المرض الخبيث الذي ماتت به امه واختاه واخوه ، ولعل هذا المرض منذ نشب في صدره قد اعطاه هذا الاتجاه المتمرد الساخر من كل القيم .

وكان في هذا الوقت قد اعتصرته الاهواء والنزوات فدخل مرحلة التصدع الجسماني والنفسي والبدني .

لقد ظنت انه يستطيع ان يقدم لها السعادة ولكنها كانت مخدوعة ، فلم تكن مي يقظة الى ان تفهم حقيقة الرجل الذي عاشت تحلم به فهما نفسيا ، ولا كانت

قادرة على ان تتبع خيوط حياته ، وهي المثقفة الذكية ، فهي قد جرت وراء بريق اسم الشاعر دون ان تفهم مدى ما جنت عليه الحضارة والازمات كرجل وانسان..

فلم يعد هو الرجل الذي تتطلع اليه المرأة الشرقية ذات التقاليد العريقة التي تعيش في اعماق مي المثقفة العصرية . وقد كان يقول عن علته « ان العلة في مكان أعمق من الاعصاب والعظام » ..

ولا شك ان مي كانت على علاقة عميقة بجبران، وكان لها في حياتها اثر بعيد المدى ، واذا كان نعيمة لم يعرض لها فانما تجاهلها رحمة بها وعنده ان افكارها تشردت افظع التشرد بعد موت جبران .

وقد كتبت تحت صورته (هذا سبب علتي منذ زمن طويل) ..

وكانت مي قد بدأت تدخل مرحلة مظلمة عندما تصدعت علاقاتها الاسرية بوفاة ابيها وامها ثم وفاة الدكتور صروف . وكان جبران في هذه الفترة قد أفضى لها بما يعرف منه انه عائد .. ولكن أي عود للمريض الذي يعيش الحياة لحظة لحظة .. وقد غلبه المرض الخبيث .

ولعلها كانت تتعلل بكلماته حين يقول : « اتعلمين يا مي انني في كل صباح ومساء أرى ذاتي في منزل في ضواحي القاهرة وأراك جالسة قبالتي تقرئين آخر مقالة كتبتها ، أو آخر مقالة من مقالاتك وهي لم تنشر بعد ؟ » .

وجاء عام ١٩٣١ ليقطع في الامر كله ويضع مي أمام المأساة بوفاة جبران ..

كان هذا هو نقطة التحول في حياتها ، هذه الوحيدة التي تعيش في بيت هامد ، لا احد معها ، وكانت قد بلغت الخامسة والاربعين وهو سن مفزع لدى المرأة الوحيدة التي لا احد حولها ..

وكانت قد انجابت عن عينيها الصور المشرقة ، والكلمات المزوقة ، وبدأت تعيش في اعماقها . تحلم بالبيت والرجل والطفل ، كأي امرأة شرقية ، على الاقل حتى تبدد الوحشة ، وحشة الوحدة .

وبدأت تدخن باسراف ، وظهرت عليها عوارض الهستريا ..

« لماذا لم يأت ؟ لقد أحببته وأخلصت له .. » .

وعزمت على الانتحار . اخذت حبوبا ، وفكرت في القاء نفسها من النافذة ، وبدأ اضطهاد ذوي قرباها ومطالبتها بالمال ..

وكان حزنها على وفاة جبران عميقا ممضا مفزعا..

وبدأ شبح الوحدة المعنوية والوحدة المادية ..

والتقت هذه العواطف والمخاوف تتصارع في نفس رقيقة لفتاة شاعرة ذات مزاج حساس في سن الجرح او سن اليأس .

وعاودتها الخيالات والرؤى والاطياف ، ولا شك انها كانت تعيش من قبل في صراع بين العاطفة والتقاليد وبين الحرية والخوف وبين العصرية والكائن الرجعي في اعماقها ..

كان ايمانها الشرقي واضحا .. في عباراتها للرافعي « سأدعوك ابي وامي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر » تبرز في خواطرها مشاعر الاحساس بان لا اخ لها ولا صديق .

وكانت الطبيعة الحساسة هي مصدر هذه المتاعب، فقد وصفها العقاد بأنها كانت تعيش في لون من الاحتراس المفرط وشدة الانطواء مع الحيطة والكتمان ، ووصفها أمين الريحاني بأنها ذات شخصية مزدوجة .

كل هذا دفع بها في عنف الى المأساة ..

ولم تعطها الرحلات شيئا كثيرا : سافرت الى فرنسا وانكلترا وايطاليا مرات وعادت ولم يجدد نفسها شيء ، ذلك لان احساسها كان مع الماضي والخيال .. ولا شك انها كانت صادقة حين رسمت لنفسها هذه الصورة .. في هذه الفترة ـ قبل عام ١٩٣٧ ـ :

« اني اتعذب عذابا شديدا ولا أدري السبب ، فانا اكثر من مريضة وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه من حولي ، اني لم أتألم ابدا في حياتي كما أتألم اليوم ، ولم اقرأ في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري ان يتحمل ما أتحمل . انه وهم شعري تمكن مني ، ان هناك امرا يمزق احشائي ويميتني كل يوم ، بل كل دقيقة . لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الاخيرة، وانقضت علي « وحدتي الرهيبة » التي هي معنوية اكثر منها جسدية فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي ان يقاوم عذابا كهذا . كنت اعمل كالمحكومة بالاشغال الشاقة لعلي أنسى فراغ سكني . أنسى غصة نفسي ، بل انسى كل ذاتي .. اللفائف التي ادخنها ليل نهار ـ انا التي لا عهد لي بذلك ـ ادخنها ليضعف قلبي ، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم .. » .

ما أشد مرارة هذه الصورة . انها مقدمة مستشفى العصفورية وعامين في بيروت في عذاب أشد هولا ..

لقد رآها منصور فهمي في هذه الفترة ووصفها بأنها « كانت نفشاء الشعر ، مشعثة الرأس ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين ، يلف جسمها المترهل جلباب ابيض فضفاض ، وتلابسه أشعة صفراء من ضوء خافت يرسله مصباح كهربائي صغير يتدلى في سقف الدهليز »

وهكذا دخلت مي مرحلة عجيبة : قوامها الشذوذ العقلي ، والاضطراب النفسي ، ومصدرها الحرمان والخوف وعقدة الاضطهاد وسن الجرح ويأس العوانس.. كل هذه العوامل تفاعلت تفاعلا مخيفا في نفس حساسة رقيقة .

ولقد كانت كتاباتها تنفس عن احساسها المختنق، كانت مشاعرها تتطور من الاشراق الى الظلمة ، ومن السرور الى الحزن ، كان قوامها حزن اليم وشوق

فندق نيو پالاس
ادارة : فتحي نوفل

وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكمال بعباد الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

مكظوم وتطلع الى المجهول ..

ولكن هل كانت تقول كل شيء ؟..

« قد يبوح المرء للناس بأعظم امانيه ، ولكن الامنية العليا تظل سرا مكتوما بينه وبين نفسه . ولو هو فقد كل شيء لبقيت تلك الامنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى ما يخفي من قدس اسراره .. » .

وهكذا لم تقل مي كل شيء ، وبقي شيء قائم في الاعماق يحرق ويلذع . غير انها لم تلبث ان عجزت عن الكتابة ففقدت حتى القدرة على الافضاء والتعبير عن المكنون في اعماق النفس ..

وكان هذا ولا شك اخطر مراحل الازمة ..

« منذ مدة لم اعد اكتب ، وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي .. » .

وليس شك ان ابلغ ما كتبته مي هي الصور الذاتية حين عبرت عن مشاعرها ، مشاعر النفس الانسانية في المرأة ، اما غير ذلك فانه ليس في مستوى هذا اللون وليس له مقام كبير في ميزان الادب العربي المعاصر .

وليس عجيبا ان ينتهي الامر على هذا النحو بمثل هذه الفتاة الجميلة الذكية الشاعرة .. فان الحياة لا تعطي كل شيء ، ولا الى الابد ..

ولست أنسى مي في مطالع الشباب وهي ترسم لنفسها هذه الصورة : صورة كلها اشراق وتطلع وطموح وغرور ..

« استحضري فتاة سمراء كالبن او كالتمر الهندي ـ كما يقول الظرفاء ـ او كالمسك ـ كما يقول متيم العامرية ـ او كالليل كما يقول الشعراء ، وضعي عليها طابعا سديميا ، عن وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي ، وعطش روحي لا يرتوي ، يرافق اولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور ، واستعداد اكبر للشجن والالم ، وهذا هو الغالب دوما ، واطلقي على المجموع اسم (مي) » .

هكذا كانت في مطالع شبابها : وجد وشوق وذهول وجوع وعطش .. وطرب والم ممتزجان ، ثم اذا الايام تنطوي وتضيع هذه الاشواق في طيات الضباب ، رجال هنا وهناك ، يرونها درة مجتمع ، ولكن لا احد منهم يراها زوجة .

لقد سبقت الزمن وظنت انها ستجد الرجل والانسان والحبيب والزوج ، وكانت تعتقد انها تستطيع ان تواجه الحياة على هذه الصورة من الحرية والجرأة ، بينما كان الكائن الرجعي لا يزال قائما في كل نفس ، كان كل شيء لا يزال غارقا في القيود ، كان مظهرها ليس هو الطابع السوي في الثلاثينيات . كانت ترى وجوها مشرقة ورسائل معطرة ، وكلمات حلوة .. ولكن لم تكن تجد الانسان الذي يملأ الحياة .. ويحقق الصورة « رجل وبيت وطفل » . وزاد ذلك الشعور عمقا بعد ان تقدمت بها السن ، وكان جبران أملا لها ولكنه لم يكن في الواقع الرجل الذي ترجوه ..

وهكذا تجهم وجه الحياة وجاءت المأساة .. مأساة المرأة الجميلة الذكية الشاعرة في الثلاثينيات ، كان لا بد ان تكون ضحية .

القاهرة

انور الجندي

دار الاداب تقدم

دروب الحرية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سن الرشد
وقف التنفيذ
الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
* تحفة ادبية يجب ان لا تخلو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل